محاضرة حول فردريك انجلز:

تمثل المرحلة الماركسية في نقدها وتحليلها للواقع الاجتماعي والتاريخي نقطة تحول مهمة بالنسبة لكثير من الفلاسفة الذين انخرطوا في تشخيص المشكلات الاقتصادية والدينية والسياسية والأيديولوجية والتطورات الفكرية الناجمة عنها، ومحاولة احتضان المفاهيم التي تناسلت عنها ضمن شروط تاريخية معينة، تريد الكشف عن الاتجاه العام الذي أخذته التصورات المادية والنظرية المصاحبة له، كان هذا حال "انجلز" الذي حاول بطريقته الخاصة التنقيب عن نشوء المسيحية وتأثيرها القوي على الوضع الاقتصادي والإجتماعي، فما طبيعة النقد الذي قدمه "انجلز" حول هذه المشكلات؟

1 ـ نشوء المسيحية:

كتب "انجلز" عدة دراسات تتناو تاريخ المسيحية وتطورها، أظهر فيها الشروط الاجتماعية التي ولدت المسيحية وجعلتها تأخذ بعد ذلك اشكالا جديدة وفقا لتطور التشكيلات الاجتماعية والصراع الطبقي المرتبط بها.

ويرى " انجلز" في نشوء المسيحية البدائية ظاهرة ثورية في زمنها، إذ جات معبرة عن الوضع الاجتماعي الذي يعيشه المجتمع الأوروبي، وكرد فعل عن الصراع الطبقي وتمرد ساخط على قيام الفروق الطبقية التي تحكم المجتمع، لكن الأمر يحتاج إلى معرفة أن المسيحية نشأت كمعتقد طبقي يريد التعبير عن تطلعات الجماهير الفقيرة وامتلاكها رغبة قوية في تجاوز المجتمع القائم وتحاول خلق مجتمع جديد، فهي إذن مسيحية ـ طبقية أو رؤية طبقية تسعى إلى ايجاد موقع لها ضمن النسق الاجتماعي الذي تطمح إليه.

لقد أراد "انجلز" استنساخ الفكرة التي تحدث عنها "ماركس"، على أساس أن الدين يمثل النظرية العامة لهذا العالم"[2]، هذه المسيحية لم تتنصل عن شكلها الديني، لكنها تتضمن محتوى اجتماعي محدد، وبالتالي تمكنت هذه المسيحية من منظورها الطبقي أن تحشد فئات عديدة من الجماهير وتستولي عليها، كما فعلت الاشتراكية.على من أن المسيحية البدائية لم تكن واعية لذاتها، فقد مثلت مع ذلك مرحلة كاملة وجديدة في مسار التطور الديني، فتحولت بطريقتها الخاصة إلى احد العناصر الأكثر ثورية في تاريخ الفكر الانساني.

2 ـ ظهور المسيحية:

ذلك يعني أن ظهور المسيحية شكل نفطة محورية هامة في تجليات التاريخ كتعبير غير واع لمجريات الصراع الطبقي، وكإشارة إلى التحولات الاجتماعية القادمة المتسمة بالصراع والعداء الطبقيين، وما رافق هذه التحولات الاجتماعية ذاتها التي غير ت فيما بعد مضمون المسيحية وحولتها بعد ثلاثة قرون إلى دين دولة، أي إلى دين الطبقة المسيطرة، على أساس أن الطبقة المسيطرة لها قدرة كبيرة على احتواء أفكار الجماهير وتتبناها وتعيد طرحها بعد أن تجهض مضمونها الثوري بتغير دلالتها الطبقية.

هذا الموقف الذي أتى من لدن "انجلز" كان نتيجة طبيعية من تطبيقه للمادية التاريخية على الحقل الديني، لذلك تعود المسيحية إلى أصول انسانية وتغير مضمونها عبر الزمن لا تمليه الارادة الالهية، بل يخضع كل هذا إلى حالة الصراع الطبقي، هذا ما يؤكد أن دراسة الدين بما في ذلك المسيحية تتم ضمن أرضية المقومات الاجتماعية، أمكا فيما يتعلق بالمسيحية البدائية، فإن "انجلز" يميز في كيانها وفي سبب وجودها ونشوئها وتقدمها، إذ يسندها إلى عاملين:الأفكار من ناحية والأرضية الطبقية من ناحية أخرى (القوى الاجتماعية).

3 ـ مقومات المسيحية:

أما فيما يتعلق بالأفكار المسيحية، يعتقد "انجلز" أنها ترجع إلى ثلاث مقومات:الحقوق الرومانية، الفلسفة اليونانية، والدين اليهودي، لقد كونت هذه المقولات الثلاث الأساس النظري للمسيحية بعد أن أخضعت هذه المقولات إلى تعديل تاريخي، بعد أن تحولت الحقوق الرومانية إلى حقوق عالمية كونية، بسبب التوسع الروماني، ولم تتحول الفسلفة اليونانية إلى مصدر للمسحية البدائية إلا بعد انتشارها وتبسيطها، أما الدين اليهودي فلم يدخل إلى المسيحية إلا بعد أن خلعت عنه صفته القومية.

أما القوى الاجتماعية التي اعتنقت المسيحية ودفعتها إلى الفضاء الاجتماعي، فهي الجماهير الشعبية للامبراطورية الرومانية، وبذلك تكون المسيحية الأولى عملا جماهيريا معبرا عن حركة ثورية عظيمة وعن طموحات طبقة الفقراء والمضطهدين، وليست حركة خارجة عن التاريخ أو شعوذة صاغها بعض الفلاسفة.

ولهذا جاءت المسيحية لتعبر تعبيراً أصيلاً عن واقعها التاريخي وتعكس تشكيلها الفكري غير بعيد عن أصولها المادية من ناحية وضرورتها التاريخية من ناحية ثانية، هذا ما يؤكد بأنها وجدت أصولها الفكرية جاهزة، لكن هذه الأصول في واقع الأمر كانت بحاجة إلى صياغة جديدة تستجيب بشكل كبير لطموحات وتطلعات الجماهير. "فالحقوق الرومانية وجدت آثارها في مجتمع يأخذ فيه الانتاج بشكل عام الشكل البضاعي، وبالتالي تتمخض عنه علاقات المنتجين، أي بخلق تجارة تتم بين البشر، إنسان يبادل إنسان، فالإنسان إذن قائم كفرد حتى لو تم ذلك بشكل تجريدي، وبذلك تكون الحقوق الرومانية قد قدمت للمسيحية مفهوم الانسان المجرد"[1] .

لقد استقت المسيحية من الفلسفة اليونانية وخاصة من فلسفة "فيلون" اليهودي ومن الفلسفة الرواقية، مفهوم الإله الواحد وخلود الروح، كما أخذت من الدين اليهودي تعاليمه العامة وتوجهاته للإنسان بعد أن خلعت عنه طابعه النخبوي والمحدود وأعطته طابعاً انسانياً كونياً، وبذلك تلاقى في المسيحية البدائية الانسان المجرد والإله الواحد ضمن اطار الكونية الشاملة في تحديد " مصير الانسان منذ الأزل إلى الأبد، ولا يمكن للبشر أن يعرفوا قراراته أو أن يغيروا منها مهما أتوا من أفعال خيّرة "[2] .

4 ـ مراحل تطور المسيحية:

إن المسيحية هي كأي مفهوم آخر للعالم لا يتسم بثبات مطلق، فهو تابع لتطور نمط الانتاج وشكل الصراع الطبقي، لذلك فإن "انجلز" يميز المراحل التالية في تاريخ المسيحية:

1ـ تمسيح الامبراطورية واتخاذ المسيحية شكلا امبراطوريا.

2ـ المسيحية في شكلها الاقطاعي.

3ـ عدم وثوقية المسيحية في العصور الوسطى كصراع طبقي.

4ـ الاصلاح البورجوازي للمسيحية.

5ـ لا تمسيح البروليتاريا (أي تخلي ابروليتاريا عن المسيحية).

وتشكيل كل مرحلة من هذه المراحل تعبيرا عن تقسيم العمل، أي عن التمايز والصراع الطبقي. فلم تأت المرحلة الأولى كأمر إلهي مطلق، بل كعملية تاريخية بطيئة تلبي حاجات العالم الروماني ـ اليوناني، فكان تركيز المسيحية على الانسان المجرد، فعاملت الانسان دون النظر إلى لونه أو موقعه الاجتماعي، ودعت بذلك إلى قيام مساواة بين الناس، فالناس سواسية في جميع المجالات، كلهم أبناء الله، يتساوون أمام الاله. وكلهم سواسية بطبيعتهم، تلك الطبيعة الانسانية الموسومة بالخطيئة الأصلية."إن توجهها هذا إلى الانسان المجرد خلق لها مجالا واسعاً في الامبراطورية الرومانية في فترة كانت فيها هذه الامبراطورية تقف على حافة الانهيار والسقوط، وتحولت بعد ذلك ، بفضل هذه العوامل إلى قوة جماهيرية ساحقة ، اعتنقها اليونان والرومان والبربر والاحرار والعبيد ، والمحليين والغرباء"[1].

إذن، "إنجلز" يتحمّل هيغلية "ماركس"، حيث يبدو أن "هيغلية" إنجلز قد أُلصقت بماركس، أو يجري الفصل الكامل بين "إنجلز" و"ماركس" على اعتبار أن هذا الأخير قد تخلّص من "لوثة هيغل" التي ظلت لصيقة "بإنجلز". هذا المنظور يوصل إلى فهم ماركس كاقتصادي، أو هو أساس ما شاع تحت عنوان "المادية التاريخية"، ومن ثم إخراج إنجلز من الماركسية. وهو المنظور الذي أوصل "ألتوسير" إلى اعتبار الماركسية هي "علم التاريخ"، وباتت تُبنى على نص لماركس كتبه في كتاب "إسهام في نقد الاقتصاد السياسي"، يفهم التاريخ انطلاقاً من الأساس الاقتصادي، وعبره يتكرر "استشفاف" ماركس لأنماط الإنتاج وكأنه قانون منضبط للتطور التاريخي.

5 ـ انجلز على خطى ماركس:

كان لقاء إنجلز مع ماركس بعد كتابة الأخير لنص "خطوط أولية لنقد الاقتصاد السياسي"، وأيضاً بعد إصدار إنجلز كتاب "حال الطبقة العاملة في إنجلترا"، والذي كان أيضاً سبباً في تقارب كبير بينهما. أي أن "الفهم الاقتصادي" هو الذي قارب بين الإثنين، ودفعهما معاً للتشارك في نقد اليسار الهيغلي طيلة سنوات 1844/ 1846، وهو النشاط الفكري الذي

كان يحاول "الدمج"، أو "المزاوجة"، بين جدل هيغل والاقتصاد، حيث كانت المرحلة الغنية التي أفضت إلى بلورة "المنهج الجديد"، أي الجدل المادي.

وهذا ما ظهر بعد إذ في كتاب "ضد دوهرنغ" الذي كتبه إنجلز رداً على دوهرنغ، وسرد فيه منظورهما معاً، في مستويات الفلسفة والاقتصاد والاشتراكية، والذي كان ماركس في تفاعل مع إنجلز حين كتابته، وأيضاً كتب جزءاً من القسم الاقتصادي فيه. بالتالي لم يكن ماركس بعيداً عن "منظور إنجلز" الوارد في الكتاب، والذي يشرح فيه الجدل المادي.

هذا يوضّح أن إنجلز لم يكن "فيلسوفاً" وماركس "اقتصادياً" بل أنهما معاً بدآ من فلسفة هيغل وغاصاً في الاقتصاد عبر مادية فورباخ، وأنهما أخذا جدل هيغل كما يشير ماركس في المقدمة الثانية للجزء الأول من "رأس المال"، وعبر مادية فورباخ بلورا الفهم المادي، الذي قال إنجلز أنه من اكتشاف ماركس، ويقوم على أن الاقتصاد والبنية المجتمعية التي تنجم عنه بالضرورة، يشكلان في كل عهد تاريخي الأساس للتاريخ السياسي والفكري لهذا العهد، وبالتالي فإن التاريخ هو تاريخ صراع طبقات. وأوضح الاختلاف عن هيغل في نقطة مركزية تتمثل في "أولوية الفكر أو الواقع" كما شرح في كراس "لوفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية". لكنهما معاً تمسكا بجدل هيغل، وهو ما يوضحه ماركس في المقدمة الثانية لكتاب "رأس المال"، حيث يرفض اعتبار جدل هيغل فطيسة، ويشير إلى "محاكاته" في الكتاب، كما أنه يوضّح كيف فكك القشرة الصوفية التي حكمته لدى هيغل.

بمعنى أن بلورة الديالكتيك المادي كان عبر التفاعل بين كل من ماركس وإنجلز، وأنهما معاً توصلا إلى "الصيغة المكتملة" لمنهجية جديدة مثّلت نقلة نوعية في تطور "علم المنطق"، لأنها تجاوزت منطق أرسطو وتضمنته معاً. فقد أحدثا نقلة نوعية في الفهم، في معرفة العالم، وفي وعي الصيرورة، التي هي حركة المجتمع ككل. وربما كانت هذه النقلة هي بفعل "اكتشاف" ماركس، كما يؤكد إنجلز، لفكرة "دور الاقتصاد"، والبدء من تحليل التكوين الاقتصادي والبنى الطبقية التي تنشأ عليه. لأن التوصّل إلى ذلك فرض "إيقاف هيغل على قدمية" بعد أن كان واقفاً على رأسه، حيث عكس ماركس فكرة هيغل القائلة بأن الفكرة هي التي تصيغ الواقع، وبالتالي فإن الواقع هو ظلال للفكرة. فأكد على أن الواقع الذي في أساسه يقبع الاقتصاد،

والتكوين المجتمعي الذي يُبنى عليه، هو الذي يحكم على نشوء الأفكار، وأيضاً على الدولة. وهو ما صاغه إنجلز في أولوية الواقع على الفكرة بعد أن كانت الفكرة لدى هيغل تحظى بالأولوية على حساب الواقع.

المصادر والمراجع:

- Marx et Engels : Sur la religion, Ed, sociales, Paris, 1960, p.41.

– فيصل دراج: الماركسية والدين، دار ابن خلدون، بيروت ـ لبنان، ط1، 1976.

– عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ـ مصر، ط1، 2006.